نقد مشروع تعميم التعليم الاولي

نشرنا في ج ٧و٨ من م٢١ تقريراً لمشيخة الازهر في نقد تقرير لجنة التعليم الاولي بوزارة المعارف لهذا المشروع . وقد طبع في هذه الايام تقرير آخر في شأن هذا التقرير لصديقنا عبد الله افندي أمين ناظر مدرسة المعلمين للتعليم الاولي في مديرية الجيزة وهو ممن طلب مراقب التعليم العام منهم ابداء آرائهم فيه وقد رأينا أن نقتبس بعض فصول هذا التقرير المفيدة ولما كان الفصل الاول منه قد عقد لنقد تسع فقرات بينت فيها اللجنة سوء حال التعليم العام في القطر المصري ووجه الحاجة الى تعميم التعليم الاولي رأينا أن ننشر أولا هذه الفقرات وهي التي انتقدها ونقفي عليه بنشر رأيه فيها وفي كل منهما فوائد ذات قيمة ثمينة لمن يعنيهم أمر التربية والتعليم . قالت اللجنة مخاطبة وزير المعارف :

الفقرات ٤ — ١٢ من تقرير اللجنة

٤ — ونعم ماقالت معاليكم في فاتحة جلسات هذه اللجنة حين بينتم أن « فشو الجهل بين جمهور الامة يؤثر تأثيراً سيئاً في حال البلاد ، وأن ضرره لا يقتصر على اضعاف الافراد وتأخيرهم بل يكون مانعاً كبيراً وعائقاً عظيماً في سبيل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ويقضي على أعظم ضروب الاصلاح في مهدها فلا تثمر ثمرتها مادام معظم من يشملهم نفعها لا يفهم حقيقتها ولا يدري كيف يستفيد منها »

(٥) والامثلة على ذلك كثيرة متوافرة في جميع فروع الاعمال الادارية لان الحكومة تضطر في جميع أعمالها الى أن تسبق بمراحل واسعة حال التعليم التي عليها جمهور الامة . فمنها:

في الزراعة : الوسائل التي تتخذ لمنع قلة محصول القطن — مقاومة دودة القطن ودودة اللوز — اتباع الطرق واستعمال الآلات الحديثة في الزراعة — ادخال أصناف جديدة من المزروعات في البلاد — توسيع نطاق التعاون في الشئون الزراعية — زيادة العناية بالحيوانات — توخي الطرق الفنية في استعمال الاسمدة الخ

في الصحة العمومية : نشر القوانين الصحية الاولية بين الناس فيما يتعلق بهم وبمنازلهم والبلدان التي يقطنون بها ـ تحسين محل المساكن ـ وضع تصميمات للمدن والقرى ـ تحرير أنظمة لتنظيف المدن والقرى ـ اصلاح موارد مياه الشرب ـ تقليل نسبة الوفيات في الاطفال ـ تحسين وسائل العناية بالنساء والاطفال من الوجهة الطبية ـ التدابير التي تتخذ عند انتشار الامراض المعدية وغيرها مما يستدعي السرعة في تداركه ـ استئصال شأفة الامراض المتأصلة في البلاد كالبول الدموي (البلهارسيا) والرمد

في الاشغال العمومية : المصارف ـ اصلاح البور من الاراضي ـ تعمير الاراضي غير المسكونة ـ انفاذ أوامر المناوبات وغيرها من أعمال الري

في التعليم : ترقية أبسط أنواع التعليم الزراعي والفني

في الامن العام: ضبط الجرائم والتبليغ عنها ويدخل في ذلك الرشوة ـ منع اجرام الاحداث وصيانتهم من الفسق ـ منع سم المواشي ـ مقاومة الهرب من الخدمة العسكرية والعمل على اصلاح الجيش والشرطة (البوليس) ـ اصلاح طرق الردع بالعقوبة ـ

في القضاء : انشاء محاكم الاخطاط وغير ذلك مما له أثر في اصلاح القضاء

في الادارة : توسيع سلطة مجالس المديريات والمجالس البلدية في ادارة شئون البلاد ـ توسيع نطاق الضرائب المحلية ـ الاستعانة في المسائل الفنية بمشورة المصالح الاميرية المختصة ـ الاحتياط لمنع نشوب الحريق بالقرى ـ اقناع الجمهور بفوائد التدابير التي تتخذها الحكومة كقانون خمسة الافدنة ونحوه ـ انشاء حلقات القطن ـ تحديد مقدار الاراضي التي تخصص بزراعة القطن ـ تسعير المواد الغذائية ـ انفاذ أوامر لجنة مراقبة التموين ـ قانون المستنقعات والبرك الخ

في الشؤون الاقتصادية : بث روح الاقتصاد والعمل على تقليل ديون الفلاحين ـ مقاومة كنز الاموال بلا تثمير ـ توسيع نطاق صناديق الادخار (التوفير) وأعمال المصارف (البنوك) التجارية ـ رفع شان الزراع والتجار المصريين حتى يستغنوا عن الوسطاء من الافرنج ـ ترقية الصناعات ـ تأسيس صناعات جديدة الخ

في الشؤون الاجتماعية : ترقية شان المرأة ـ الاهتمام بالاطفال ـ مقاومة الشحاذة والشرود (التشرد) ـ تحسين أحوال المعيشة في بلاد الارياف والترغيب فيها

هذه أمثلة عدة — لاتحتاج في سردها الى خبرة خاصة — وهي قليل من كثير من وجوه الاصلاح الاداري والاجتماعي التي تقوم بها الحكومة الآن . وجلي أن أول عامل يتوقف عليه نجاحها انما هو تحرير الشعب من ربق الجهل وانتشاله(١) من هوة الامية

(٦) وقد جاء في ملحق السير إلدن غورست بكتاب «انجلترا في مصر» تأليف اللورد ملنر بعد ان تكلم على عدم بلوغ الحكومة النجاح المنشود في بعض فروع الادارة ما ترجمته «على ان السبب الحقيقي يرجع الى ما هو أبعد من ذلك..... وليس هناك علاج ناجع دائم الا تربية الشعب عامة وتهذيبه . وانما يكون ذلك بانتهاج خطة سديدة في التعليم سداها بعد النظر ولحمتها الخبرة السياسية» (صفحة ٤١٣)

(٧) وقال المسيو شارليتي مدير التعليم العام في تونس في خطبة ألقاها بمؤتمر افريقية الشمالية سنة ١٩٠٨ ما يأتي «ان التقدم الاقتصادي مرتبط بجميع شؤون الحياة على اختلاف أشكالها . بيد أن الناس لا يستطيعون الوصول الى هذا التقدم والانتفاع بمزاياه الا اذا تربوا تربية تسهل لهم فهم كنهه وتقربه من أذهانهم . فان مسالة التعليم من أدق الامور وأشقها وخاصة في بلاد يجب فيه قبل بلوغ أسباب الحضارة الحديثة اجتياز جميع مراحل الطريق الطويلة التي خلفتها عصور الجهل المطبق . فاذا لم يتيسر حل هذه المسالة حلا تاما فلا أقل من الاقتراب من ذلك الحل باتخاذ جميع الوسائل التي يتناولها التعليم والتهذيب والقدوة الحسنة»

٨ وقال الدكتور لورنس بولز الذي كان يشغل وظيفة نباتي بوزارة الزراعة في كتابه «مصر وطن المصريين» صفحة ٢١٤ ما ترجمته: «ان مالارض مصر من الخصب والقوة لايزال كامنا دفينا اذ هي لم تخط بعد خطوات تذكر نحو القيام بعملها الطبيعي وهو انتاج المحصولات الزراعية وارسالها الى العالم بأسره ..... ومما لايستوره شك أن وادي النيل سيصير في يوم من الايام من أعظم الممالك الزراعية محصولا لان به من مختلف الاجواء ما يناسب كل نوع من أنواع المحصولات المختلفة باختلاف تربة الجهة التي تنمو فيها ويربطها جميعا نهر النيل الذي هو منبع وجودها ومصدر حياتها . ومن هذه البقاع ما ستبقى الزراعة فيه أزمانا طويلة الامد على الحالة الفطرية التي تشاهد في الغابات . ومنها ما يرقى حتى ينتج أنفس المحصولات

(١) المنار: النشل والانتشال في العربية أخذ اللحم من القدر وله آلة عقفاء تسمى المنشال ويطلق النشل على أخذ اللحم عن العظام أيضا ويستعمله كتاب انجلترا ومثالهم من المعاصرين بمعنى الانقاذ من هلكة حسية أو معنوية ولهذا المعنى في اللغة كلمة فصيحة وهي الانتياش قال ابن دريد :

ان ابن مبكال الامير انتاشني ... من بعد ما قد كنت كالشيء اللفا

ونحن الى الآن لم نألف افتقار الاعمال الزراعية الى المهارة الفنية. غير أن مشاهدة ورقة بديعة من نسج هافانا أو الفطن الذي يكفي الرطل منه لصنع خيط طوله ٢٠٠ ميل أو النباتات التي تزرع خاصة لاستخراج العقاقير الطبية تكفي لاقناع كل متردد في عظم فائدة المهارة الفنية في الزراعة وجليل اثرها. فالزراعة التي من هذا القبيل ـ أي الزراعة التي تحتاج الى مهارة فنية ـ لها في مصر من الاحوال الملائمة مالبس في مملكة أخرى. وقد يرى في بديهة الامر أن في هذا القول شيئاً من الغلو ولكننا لم نقله جزافا..... ولكي تنتفع مصر بهذه المزايا الطبيعية يجب أن يكون بها من العمال من يستطيعون أن يعملوا بعقولهم وأيديهم معاً لذلك لا نكون مبالغين اذا قلنا بان حاجات المستقبل ستكون كفيلة بايجاد طائفة جديدة راقية من المصريين أي بايجاد شعب بجهم توقد القريحة الى ما كان لاجداده من قوة الاجسام» وليس هذا الانتقال المنتظر في المستقبل مقصورا على القطر المصري. فان وزارة المعارف الانجليزية تقول في رسالة عنوانها «مسألة المدارس الريفية» ان عصر القوى العضلية قد فات ونحن الآن في عصر انبثق فيه فجر العقول»

٩ — وقد قدم للحكومة أخيراً تقريران من لجنتين ألفتا بامرها: الاولى برئاسة حضرة صاحب المعالي اسماعيل صدقي باشا للنظر في توسيع نطاق التجارة والصناعة، والثانية برئاسة جناب اللفتننت كولونل بلفور للنظر في تعديل نظام مصلحة الصحة العمومية بمصر. وجلي أن ضروب الاصلاح المقترحة في هذين التقريرين ستلقى في الخطوة الاولى من انفاذها عقبات كبيرة لجهل الناس غاياتها النبيلة

١٠ — فقد جاء في تقرير لجنة توسيع نطاق التجارة والصناعة ما يأتي: «ان ما سبق لنا ذكره من البيان المختص بالصناعات الصغرى المصرية لهو حجة قائمة وشاهد ناطق على ما بالبلاد من النقص الذي تئن منه أنين الثكلى وترزح تحت أثقاله. فان خلو الاعمال من النظام والترتيب واستهانة العمال باتقان عملهم من الامور الدالة على ضعف التعليم ونقص تهذيب الاخلاق ....

«فاذا سأل سائل ما حال القطر من حيث التعليم العام والتربية الخلقية كان الجواب ان أقل بحث في هذا الموضوع يكفي للحكم بأن ما يتبع الآن من الخطط في التربية والتعليم في مصر يقصر عن الوصول بالبلاد الى الغرض السامي المقصود منهما وعن النهوض بها من الوجهة الخلقية. اذ مما لا نزاع فيه مطلقاً أن التعليم لم يبر حتى الآن جميع طبقات الامة وأن التربية المنزلية لا تقتصر مساوئها على

نقصها وتنكبها الغرض المنشود بل انها مبنية على أساس فاسد غير وطيد الاركان. فهي بدلا من تمويد النشء النظام وحسن التدبير تولد في نفوسهم الاسراف وسوء الادارة في الاعمال . وهي تبث فيهم روح الكسل والاهمال وتصرفهم عن الجد والنشاط . وهي تغرس فيهم التردد في الامور أو قلة العناية بها وعدم النظافة وما أشبه ذلك من النقائص التي تقف حجر عثرة في سبيل تقدم البلاد من الوجهة المعنوية وبذا تعوق تقدمها من الوجهة الحسية أيضاً

«ولما كان من واجب هذه اللجنة اقتراح جميع الوسائل التي تؤدي الى أقصى درجات الرقي الاقتصادي فهي تتشرف بلفت نظر الحكومة الى ضرورة الاسراع في انفاذ مشروعها المختص بتعميم التعليم الاولي وتوجيه مزيد العناية اليه . وترى اللجنة أيضاً أن من الواجب عليها التنبيه الى ضرورة بذل مزيد العناية بأمر التربية وتقويم الاخلاق واصلاح أحوال البيئة المنزلية خاصة فان تربية المرأة في هذا المقام من عوامل رقي الامة بأسرها»

١١ — وأوردت لجنة النظر في تعديل نظام الصحة العمومية قولا موجزاً في وصف الحال الحاضرة في مصر فقالت : «من المعلوم أنه لا يتيسر رفع شعب من الشعوب الى المنزلة التي فيها يعرف لنفسه حقها مادام الجو الذي يعيش فيه ملوثاً بالاقذار . فاننا اذا أجلنا النظر في أنحاء مصر وجدنا أن معظمها تعلوه الاوساخ وتحط فيه رحالها الاقذار . فهي كما كانت في قديم الزمان ملطخة بالامراض على اختلافها ولا أمل في أن يقوم أهلها بما عليهم من رفع شأن بلادهم ما دامت الامراض تثقل عواتقهم وتخيم على رؤسهم . ان نسبة الوفيات في الاطفال دائمة فثلث أبناء الامة يموت وهو في سن الطفولة وغضارة الحياة . هذا الى أن انتشار الحشرات والهوام بين الناس لم يقل على الرغم مما ثبت حديثاً من أن القمل وسيلة لنقل التيفوس والحميات الراجعة التي تفتك بالاهلين فتكاً ذريعاً»

وقد اشارت اللجنة بوجوب «شن غارة شعواء للقضاء على الجهل والقذارة واستئصال شأفة المرض والبؤس» ومما يلفت النظر أنها ذكرت الجهل أولا ولم تعلق أملا كبيراً على اصلاح الحال الصحية اصلاحا وافياً بالغرض بتلقين أسباب ذلك لمن بلغوا سن الحلم فقد قالت :

«فان الحقائق التي وقفنا عليها تدل دلالة واضحة على أن رجال فرقة العمال المصريين بعد أن يقضوا مع الجيش مدة يضطرون فيها الى مراعاة أنظمة صحية خاصة لا يكادون يرجعون الى مواطنهم بالقرى الا وهم عائدون الى سيرتهم الاولى . فتراهم لا يعمدون الى بث شيء في نفوس قومهم مما تعلموه من أسباب النظافة . وكفى بتاريخ الجيش المصري دليلا على أن ذلك ليس من الغرابة في شيء. فان الجندي المصري بالرغم من تدربه على النظام والترتيب ووقوفه تمام الوقوف على الطرق الصحية المتبعة في المعسكرات والتكنات لا يكاد يرجع الى قريته الا وهو مندمج في غمار عشيرته من الفلاحين فلا يمكن تمييزه منهم »

وختمت اللجنة قولها في هـذا المقام بأن أوضحت أن أنجع وسيلة يرجى منها إصلاح الحال لا تكون إلا بالبدء بتعليم الطفل « فان الطفل المتعلم قد يصبح أستاذا لوالديه غير المتعلمين ويكون بمثابة النواة الاولى التي تنبت منها على مدى الايام عوامل رقي الفلاح» .

١٢ — وقد نشرت جريدة (الاخبار) بعددها الصادر في ٢٨ ابريل سنة ٩١٧ مقالة بقلم صحفي مصري (علمونا القراءة أولا) وصف فيها الكاتب حال الفلاح المصري وصفا ممتعا لا يخلو من المبالغة وبين فيها أن مصر لا تحتاج الى جامعات جديدة بل الى نشر التعليم الاولي بين جمهور أهلها . قال ما نصه :

«السواد الاعظم من الامة المصرية من الفلاحين لا بسي الجلاليب الزرقاء وأكثر هؤلاء (والحمد لله) لا يعرفون القراءة والكتابة . أما الافراد القلائل المقيمون في عواصم القطر فلا يعتد بهم لقلة عددهم بالنسبة لمجموع الامة . فاذا أراد واحد من الفلاحين أن يكتب صكا أو جوابا لا يجد من يكتبه له فيضطر أن يسافر من قرية الى أخرى حتى يعثر بشخص يعرف كيف يفك الخط . وكتابة مثل ذلك الشخص لا يفك رموزها الا عالم من علماء الآثار القديمة كالعلامة شامبليون الذي تمكن من قراءة الخط الهيروغليفي :

(نحن المصريين لا نعرف من أصول الصحة شيئا . وكل من ذهب الى احدى القرى أو العزب يشتم قبل أن يصل اليها بضعة أميال الروائح الذكية (في أنوف صاحبها) المتصاعدة من أكوام السماد الفائقة كأهرام الجيزة ضخم أجدادنا وهي

تحيط بالقرية أو العزبة من كل جهاتها . ويرى مجاري جامع القرية ذات المنظر الجميل تجري الى النرعة التي يشرب منها أهل القرية بدون اشمئزاز . ويرى شكل القرى الكئيب والمنازل المتلاصقة ذات الابواب الضيقة والغرف التي ليس بها منافذ ويرى الفلاح نائما هو وأولاده بجانب جاموسته لافرق بين الجميع .

« ومن المضحك المبكي أن اسم الدكتور عند الفلاحين كاسم عزرائيل عند المتدينين . فاذا أتى الدكتور الى بلدة ترى المرضى اختفوا بأسرع من لمح البصر إما أن يحملوا الى جهة في الغيط بعيدة أو يدفنوا في قش الارز أو حطب القطن المكوم على الاسطح . ولا يفهم الفلاح (طبعا) شيئا اسمه ميكروب أو عدوى . ومع أنه لاشيء أكثر من الماء عند الفلاحين تجد أكثرهم قذرا وسخا وكأنه يخشى أن يخلع ملابسه فتحملها تلك المخلوقات الشريفة وتهرب بها لكثرة مايقلقها بهرشه وكرشه فهو دائما أبدا في قلبها .

« ليس في الدنيا فلاح يحافظ على تقاليد الفلاحة القديمة من عهد قدماء المصريين أو من عهد أبينا آدم الا الفلاح المصري . فلو بعث فلاح من أيام الفراعنة لرأى أخاه فلاح اليوم لم يخن الامانة ولم يمد يده الى آلة من آلات الزراعة التي سلمها اليه بتغيير أو تعديل . فالمحراث والشادوف والطنبور والنطالة المخوص كلها بحالتها العتيقة كما تركها له . ووجده أيضا لم يغير شيئا من طرق الزراعة القديمة فلم يتفنن أو يجتهد ولم يحسن نوعا من أنواع المواشي أو المحاصيل ولا يزال طعمة التاجر والمرابي مهما سنت الحكومة من القوانين لحمايته .

« فهل ينتظر من هذا الفلاح وهو كل الامة المصرية أن يقبل على الجامعات التي تدرس الفلسفة والتاريخ او يقرأ الجرائد والمجلات العلمية أو يعلم ماتريد أن تعلمه اياه الحكومة بمنشوراتها ولوائحها ؟ فالى أي شيء تحتاج الامة المصرية إذن لترتقي وتعد في مصاف الامم الحية وماهو الدواء الذي يشفيها من مرض الجهل فتصبح أمة وكل فرد من أفرادها يعرف القراءة والكتابة فتتفتح أذهانها وتعلم وترتقي ؟

« (أظن أن كل فاضل من القراء يفهم ذلك الدواء) »

وهنالك جرائد مصرية أخرى ألحت على الحكومة مرارا وصاحت بوجوب الشروع

في تعميم التعليم الاولي والمسارعة الى ذلك حتى تستطيع أن تخطو فيه خطوات واسعة في القريب العاجل» . انتهى نص الفقرات التسع مع تصحيح عبارات قليلة صحفية من مقالة الاخبار ويليها ما كتبه عبدالله افندي أمين فيها وهو

التعليم الاولي والاصلاح

نقد الفقرات ٤ و٥ و٦ و٧ و٨ و٩ و١٠ و١١ و١٢

حاولت اللجنة في هذه الفقرات أن تقيم الادلة على ماجاء في الفقرة الرابعة منها من أن « فشو الجهل بين جمهور الامة يؤثر تأثيراً سيئاً في حال البلاد وان ضرره لا يقتصر على إضعاف الافراد وتأخيرهم بل يكون مانعاً كبيراً وعائقاً جسيماً في سبيل الرقي الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ويقضي على أعظم شروب الاصلاح في مهدها فلا تثمر ثمرتها مادام معظم من يشملهم نفعها لا يفهم حقيقتها ولا يدري كيف يستفيد منها » .

***

ومراد اللجنة من هذا الكلام إقناع أولي الامر بوجوب الاسراع في تعميم التعليم الاولي فحسب . وهو مراد شريف جليل ، غير انه شغلها عما سواه فقاتها أن تقصير الاهالي في قيامهم بنصيبهم من اصلاح الحكومة الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لقصور مداركهم ، ليس أكبر من تقصير الحكومة نفسها وهي رشيدة عليمة وبينها وبين الشعب « هوّة لا تُعبر » (أنظر ١٤ و١٥) في قيامها بنصيبها وحدها من الاصلاح نفسه

ولا شك أن قواعد الاصلاح وأصوله كلها ماكان منها من عمل الحكومة وحدها وما كان منها من عمل الشعب وحده ، كسلسلة متصلة الحلقات يأخذ بعضها بأطراف بعض ويقوي بعضها بعضاً . فلو أن الحكومة كانت مثالا لشعبها فقامت بنصيبها من الاصلاح لكان لهم فيها أسوة حسنة

ولقد رمى هذا النصيب في نفوسهم سروراً عظيما به وشوقا الى القيام بنصيبهم من الاصلاح

ولو أن الحكومة أكثرت من مستشفيات الامراض ومستشفيات الارماد المتنقلة والثابتة وانشأت حمامات ومغاسل وأحواضاً لخزن المياه وترويقها في القرى لأقبل عامة الشعب على هذه المنشآت اقبالهم الآن وقبل الآن على ما أنشيء من مستشفيات الرمد وهو عظيم جداً ولآثروها على طب الشعوذة والتجارب الاهلية الناقصة الفاسدة وعلى الاستحمام وغسل الثياب في مياه الترع والمصارف الراكدة وعلى شرب ماء النيل المكر وأصلح ذلك من أجسامهم ونفوسهم وعقولهم أكبر اصلاح لما فيه من وسائل حفظ الصحة ومن الانصراف عن العادات السيئة والتجارب السخيفة والاعتقاد الفاسد فيها

ولو أن الحكومة قدرت مثلا مكافأة لمن يبتدع مادة رخيصة جداً اذا مزجت بالتراب جعلته صلباً صقيلاً ترصف به الارض وتيسر لها رصف الطرق الزراعية الرئيسية وغرست على جانبيها الاشجار الضخمة لدفعت عن الشعب عادية التراب وما يحمل من جراثيم الامراض المختلفة وأظلته فدفعت عنه حرارة الشمس، ولبعثت بذلك في نفوس الاهالي يقظة وانتباهاً لامور هم في أشد الحاجة اليها — انتباهاً لا يمكن أن يكون بالنصح والاوامر وحدها

ان وسائل تربية الشعوب وتهذيبها كثيرة جدا. وكثير من هذه الوسائل من عمل الحكومات وهي أقدر على القيام بها من الاهلي وأولى بها منهم. غير أن سكوت الحكومة وتراخيها وحاجة البلاد الظاهرة الى

العمل النافع فيها يدفع من لا يقوى على الانتظار من أبناء الامة العاملين المخلصين الى القيام بما تحتاج اليه البلاد غير ناظر ولا منتظر المسئول عنها، وان اعترضته في سبيلها العقبات من قبل استعداد الاهالي أو امتعاض الحكومات وحسبنا دليلا على ذلك ماقام به مجلس مديرية الجيزة المحترم من انشائه مستوصفين متنقلين في انحاء المديرية سنة ١٩١١م أيام رئيسه المغفور على الاخلاص والصراحة والغيرة والحزم والعزم والثقة بالنفس وحب الاصلاح حضرة صاحب العزة عبد الرحمن فهمي بك

أنشأ المجلس المحترم حينئذ هذين المستوصفين المتنقلين لما كان يتوقعه من الآثار الجليلة التي يتركانها في صحة الاهالي وأخلاقهم وعاداتهم وعقائدهم وما أعظم ماتركا من ذلك! فان الذين عولجوا فيهما يمدون بالالوف. ولعل مصلحة الصحة تذكر ذلك. وقد كانت أحق بهذا العمل منه غير أنها سكتت ولا تزال ساكتة حتى ملّ الانتظار ونفد الصبر

ان اللجنة تعلم علما يقينيا أن التعليم وحده لا يصلح النفوس. فقد نقلت في الفقرة (٢١) عن (المستر لكي) قوله «أجل ان التربية العقلية المحضة لا تحدث تغييرا أساسيا في خلق الرجال» وتعلم أن الامة لا تغير ما بها حتى تغير ما بنفوسها، فلا بد للحكومة الرشيدة التي توصف بأن بينها وبين عامة الشعب «هوّة لا تُعبَر» من أن تسعى جد السعي في البحث عن العلاج الناجح لتغيير شعبها ما بنفوسه — شعبها المخلص الذي ضربت له اللجنة مثلا الشعب الهندي اذ نقلت في الفقرة (١٩) من التقرير «وأعني بهم الملايين من الفلاحين الفقراء المساكين الصابرين الاذلاء ستين»

وما تلك الوسائل النافعة ؟ تلك الوسائل هي الاصلاح الفعلي كإنشاء المستشفيات وترويق المياه وغيرها، لا النصائح القولية والاوامر الكتابية التي لا تغير من نفس ولا تحيي من عمل. لقد آن للحكومة الرشيدة أن تعدل عن الخطة المنيفة البالية وهي الامساك عن وسائل الاصلاح الفعلية خوف زيادة الضرائب ولو زيادة طفيفة تقدر بالمليم، وتعمد الى خطة المعلم الماهر والمربي الحاذق فتكون مثالا حسنا في الاصلاح لشعبها فتأخذ بنصره أخذاً صحيحا الى منازل النعم الحقيقية في الجسم والنفس والعقل من أقرب الطرق وأقومها وألا تظن أن نشر التعليم الاولي يكفي وحده لهداية الشعب وارشاده الى وجوه الاصلاح وحضه عليها من غير أن تقوم هي بالامثلة العملية منها فتوفي نصيبها من الاصلاح حقه

انها ان ظنت ذلك وعولت في كل ما تريد من وجوه الاصلاح على التعليم الاولي وحده وركنت اليه وألقت العبء كله عليه، خابت الآمال وضاع الوقت سُدًى

التعليم الاولي والعالي

علم الحاكمين وجهل المحكومين

نقد الفقرات ٢ و ٢٤ و ١٢٥

استكثرت اللجنة في الفقرة (١٢٥)[1] من التقرير ما ينفق على التعليم العالي

(١) [نص الفقرة ١٢٥] ليس الامر مقصورا على قلة مجموع الاعتمادات المخصصة بالتعليم بميزانية الحكومة بالنسبة لما في معظم البلاد الاجنبية بل ان معظم تلك الاعتمادات ينفق على التعليم الراقي الذي لا ينتفع به سوى طائفة صغيرة ممتازة من الامة لا تدفع سوى قسم ضئيل من النفقات التي يتطلبها تعليم أبنائها ، أما سكان الاقاليم الذين تتوقف ثروة البلاد على كدهم ونصبهم فلا يكادون ينالون قسطا من التعليم في مقابل الضرائب

بجانب ماينفق على التعليم الاولي. وانكرت في الفقرة (٢٤)[1] من الخطة التي انتهجتها الحكومة المصرية — وهي متبعة في البلاد من عهد المرحوم محمد علي باشا واضع أساس النهضة الحديثة لمصر ورافع لوائها — بتعليمها الطبقة

التي يقع معظمها على كاهلهم

واذا استثنينا الاعانة التي تمنح المكاتب في المحافظات ومديرية أسوان وقدرها ٧٣٠٠ جنيه وما ينفق على مدارس المعلمين والمعلمات الاولية الاربع وهو ٢٨٨٠٢ من الجنيهات وصافي ماينفق على المدرسة الاولية الراقية للبنين والمدرسة الاولية الراقية للبنات وقدره ٤٠٠٠ جنيه وصافي ما ينفق على ثلاثة المصانع (الورش) الاميرية وهو ١٨٠٠٠ جنيه والاعانة المخصصة ببعض مدارس صناعية غير تابعة للحكومة وقدرها ١٠٤١٠ جنيهات — اذا استثنينا كل هذه المقادير ومجموعها ٦٨٠٠٠ جنيه أمكن القول بأنه لم يدرج شيء في ميزانية الحكومة لسنة ١٩١٨ — ١٩١٩ لتعليم طبقات الشعب. على أن معظم هذه المقادير يصرف في مدينتي القاهرة والاسكندرية. ثم ان الثمانية والستين من آلاف الجنيهات التي تصرف في تعليم أبناء الشعب يقابلها ٤٩٠٠٠ جنيه تحصل من ايراد الاراضي والعقار الموقوف للانفاق على المكاتب الاهلية . أي أن ما تنفقه الحكومة في الحقيقة من ايراداتها الخاصة في كل سنة على تعليم الشعب نحو ١٩٠٠٠ جنيه فقط

[نص الفقرة ٢٤] قال المستر أسكويث «ان الحكم على مقدار رقي الامة وفوزها في مضمار الحياة يجب أن يبنى على مايتوافر لدى أدنا طبقاتها من الامور الحسية والمعنوية» ويرى أنه لم يبن الحكم على ماوصل اليه القليلون من خيرة أفراد الامة الذين ضربوا في التعليم الراقي بسهم . فاذا أردنا الوقوف على مايتوافر لدى أدنى طبقات الامة المصرية من الامور الحسية والمعنوية وجب علينا أن نلقي نظرة الى انتشار الاكواخ الحقيرة المبنية من الطين التي تضم بين جدرانها الانسان وبهيمته والى شيوع القذارة والاوساخ وفشو العال والامراض وهلاك ثلث الابناء في طفولتهم وانتشار الامية بحال رائعة تعادل ٩٦ في المائة من السكان وضيق المجال أمام الافراد واقتصار

الراقية للأمة التعليم العالي قبل تعليمها عامة الشعب (التعليم الاولي بلا شك) وعدت عملها هذا عملا مقلوبا وضربت لذلك مثلا قول (السير كلبتن دوكنز) في الفقرة (٢)[1] «ان التعليم الاولي في مصر شبيه بهرم مقلوب رأسه الى أسفل »

كدم على القوت اليومي . فهل الى ترقية تلك الاحوال في الامة المصرية من سبيل سوى تعميم التعليم؟ لا . ومن العبث الاعتقاد بأنه يمكن الوصول الى الرقي المنشود بالبدء بتعليم الطبقات الراقية قبل عامة الشعب أو بالاعتماد على ما يحدث من التأثر الذي ينشأ من اختلاط الطائفة القليلة المتعلمة بطبقات الشعب الجاهلة بل ان الضرورة تقضي بالنهوض بالتعليم العام وتتطلب نشر نور العرفان في الامة بأسرها .

قال الشاعر برونتج في قصيدته المعنونة براسلس ما معناه بالعربية

كتبت على لوح الحقيقة حكمة ان الرقي شريعة الاحياء
مالي أرى الانسان يغمض عينه عن نور تلك الحكمة الزهراء
أنجد حتى صار أهلا لاسمه ان حق فخر الناس بالاسماء
أم نال ما تصبو اليه طباعه من درك أعلى ذروة العلياء
أم أعمل المكنون من قواته كي يملأ الدنيا من النعماء
أني يتوج بالكمال ولم يزل في العلم معظمه من الفقراء
وكأن أهل العلم بين سواده بعض النجوم الزهر في الظلماء
أو بضعة من نسل هوج حولهم جسم من الاقزام والضعفاء

١)[نص الفقرة ٢] لم يعزب عن أذهاننا من بادئ الامر أن الموضوع يتضمن اعتبارات عدة عظيمة الشأن . فقد قال اللورد مورلي العالم والسياسي الشهير : « ان مسائل التعليم الاهلي كيفما تنوعت طرق حلها ذات اتصال بحياة الامم وفنائها » وقال اللورد كرزن أيام كان حاكما على الهند : « ان طبيب الامة الحقيقي هو ذلك الذي يصف لها أنجع وسيلة لتربية أبنائها » . وتناول كل من اللورد كرومر في كتابه « مصر الحديثة »

فكان هذا الاستكثار من اللجنة مع ذلك الانكار المقرون بهذا المثال نصالا حادة تتناولها الحكومة اذا شاءت ومتى شاءت لتخز بها التعليم العالي وأدلة واضحة جلية على أن الاقاويل والآراء التي نقلتها اللجنة الى تقريرها من كبار المستعمرين قد تركت فيها أثراً جعلها ترى التعليم العالي بعين جنبية لا تستطيع أن ترى بها محل الحاجة وموضع النفع.

وان من يحسن الظن باللجنة كل الاحسان — مثلي — لا يجد لها فيما يتلمس من المعاذير الا عذرا واحدا وهو ما يخيل الى المفكر في أول الامر من أن البدء بتعليم الولد الصغير التعليم الاولي ثم التنقل به بعد ذلك في مراحل التعليم الارقى موافق سنة النشوء والارتقاء. أجل ان ذلك حق واضح. لكن لا بد معه للولد من وصي رشيد يقلبه كيف يشاء وينقله من حال الى حال كما يريد. وان ذلك الوصي الرشيد يجب ان يكون منه

والسير ألدون غورست في الملحق الذي ذيل به كتاب اللورد ملنر وهو « انجلترا في مصر » البحث في وجوب اتباع خطة سديدة في التربية ترمي الى تحسين حال الامة عامة من الوجهتين العقلية والخلقية (انظر الفقرتين ٦ و١٥). وقال السير كانتن دوكنز في ملحقة لكتاب اللورد ملنر (صفحة ٣٩١) : « ان التعليم بمصر شبيه بهرم مقلوب رأسه الى أسفل ». والحقيقة أن حال مصر المالية كانت الى عهد قريب تمنع من اعداد وسائل التعليم على اختلاف فروعه ومن سد حاجة الامة اليه سدا وافيا وقد أوثر انفاق ما يمكن بذله من المال في هذه السبيل على توسيع نطاق التعليم ذي الصبغة الاوربية الذي يتلقاه أبناء الاغنياء. فكانت النتيجة أن تعليم العامة لم يوجه اليه من عناية أولي الامر الا النزر اليسير. لذلك رأينا أن واجبنا غير مقصور على درس موضوع التعليم الاولي من حيث كونه مسألة قائمة بذاتها منعزلة عن سواها وانه لا بد لنا من مراعاة ارتباطه بالخطة القويمة التي تتبع في التعليم بوجه عام،

ليكون اخبر بحاجاته ومنافعه ومضارّه

وان الامة لكذلك يجب ان يكون فيها ومنها ناس كبار العقول يقودونها الى السعادة ويرفعونها الى اوج العظمة . لذلك كان تعليم طبقة راقية من الامة علما راقيا قبل تعليم عامة الشعب العلم القليل موافقا لسنة النشوء والارتقاء في الامم ، وقد ضرب لنا التاريخ امثلة كثيرة قديمة وحديثة دالة على ان أمما كثيرة نهضت من عثارها ونشطت من عقالها بأفراد منها . فالعناية بتكوين افراد افذاذ في الامة تكوينا فائقا احق واولى بالتقديم من تعليم عامة الشعب تعليما اعظم مايقال فيه انه اولي

هذا ما نراه ونشعر به ولم يسعدنا الحظ قط بان سمعنا او قرأنا ان امة بأسرها امسكت عن التعليم العالي جملة حتى تعلمت كلها التعليم الاولي ثم اخذت بعد في اسباب التعليم العالي ، وان اوتيت اوصياء حكماء رحماء بصراء اقوياء من الاجانب

على ان التعليم العالي لا يزال جنينا في بلادنا ، فأين بضع مدارس اميرية عالية تدرس فيها بعض العلوم العالية من جامعات كبيرة تدرس فيها كل علوم البشر ، مع ان العلم الذي يدرس في مدارسنا العالية لم يكن له في البلاد من اثر ظاهر نافع الا ماكان من علم الطب

لقد كان للجنة التي رأت حاجتها الشديدة الى النظر في التعليم بوجه عام (انظر آخر فقرة ٢) ان تفتش عن حل آخر لإمكان تفرغ الحكومة للتعليم الاولي . ذلك بأن ترى مثلا ان في وسع الحكومة ضم مدارسها العالية الى مدرسة جامعة وتأليف مجلس ادارة لها يؤلف من رجال

الحكومة والامة وان تشترك الحكومة والامة معاً في النفقة عليها على نحو الخطة التي خطتها للتعاون بين الحكومة والهيئات النيابية في التعليم الاولي فيكون دراجة لنقل التعليم العالي كله من يد الحكومة الى يد الاهالي فتتفرغ الحكومة كل التفرغ للتعليم الاولي ولا تشغل نفسها بمهامة لها كما جاء في الفقرة (١٣٠)

اما الهوة السحيقة التي لا تعبر بين المحكومين والحاكمين كما ترى اللجنة في الفقرتين (١٤و١٥) فالذي حفرها انما هو التربية المدرسية لا العلم ذاته. فان الولد الذي يُنتزع من حضن أمه وأبيه وينزع عنه زي بلاده ويلبس الزي الغربي ويدفع الى مدارس قد صبغت بالصبغة الغربية (فقرة ٢ وفقرة ٨٨) فيُعَمَّر فيها طويلا لا تقع عينه فيها الا على كتب سداها ولحمتها الروح الغربي ومعلمين غربيين او ممن خلعوا عنهم رداء الوطنية الصحيحة من قبل، فيشب على عادات واخلاق تزهّده في أمه وأبيه وسائر مماشريه كما تقول اللجنة في الفقرة (١٧) وتبعث فيه الغرور بنفسه. وما أبعد الشقة وأعمق الهوة بينه وبين أهله لو أتيح له أن يتم الدراسة في الغرب فيقيم فيه ردحا من الزمن يفقد فيه لضعفه البقية الباقية له من سجاياه الوطنية حتى المحمودة منها!

هذه حال نشاهدها كل يوم في اكثر الشبان والشواب وقد نسوا جميعا معارفهم وعلومهم وبقي لهم من طرق التربية المدرسية اسوأ مافيها واردؤه فليست الهوة السحيقة البعيدة الغور بين الطبقة الراقية من المتعلمين وبين عامة الشعب من تفاوت بينهم في العلم بل من نقص في تربية الطبقة الراقية النفسية التي شوهت بتربية لا تلائم تقاليدنا وأمزجتنا وعاداتنا

... بنا دليلا على ذلك ما نجده فمن يتخرجون في مدرسة المعلمين الناصرية ويرجعون الى أوربا بعد أن يكونوا قد صبغوا بصبغة وطنية محضة فانهم يعودون وهم الى آلهم وعاداتهم وتقاليدهم أقرب منهم إليها قبل أن يغادروا بلادهم لان العلم وسعة العقل والمدارك من شأنها أن تنزع من نفس العاقل الوساوس والاوهام والخطأ الذي يدفع بكثير من ناقصي العلم والمدارك الى استصغارهم أوطانهم وآلهم، وإكبارهم الغرباء وكل ما هم عليه لسبق أحرزوه في شيء من العلم والمدنية، حتى تعمى عليهم الحقائق ويخلط عليهم الحابل بالنابل ويلبس الحق بالباطل

هذا هو السبب الحقيقي في الهوة بين الطائفتين لا العلم العالي الذي تخشى اللجنة انتشاره قبل التعليم الاولي . وانا ارجو بعد ذلك أن يكون هذا الخوف قد زال

* * *

حضرت مرة مجلسا جمعني بفتى ظريف وبأبيه وعمه وطائفة من اقربائه وكان هذا الشاب في زي ظريف ويحمل عصا ونظارة ودبوسا كلها من ذهب وأعجب من هذا وذاك انه يلبس سوارا من ذهب بساعة من ذهب . وقد جلسنا طائفتين : احداهما فيها أبوه وعمه وناس آخرون ، والاخرى فيها هذا الفتى وكاتب هذه السطور وابن عم له اكبر منه سنا ومقاما . وكان هذا الفتى على أبواب السفر الى أوروبا وقد ضرب له ابوه على نفسه ثلثمائة جنيه في كل سنة يتسلمها بيده وينفقها كيف يشاء وفيما يريد . وهو مع ذلك يراه مقداما هيابا . وكنا اذا فتحنا عليه باب النصيحة والارشاد حاول إغلاقه واستخف بأبيه وهو على مسمع ومرأى منا لا لشيء

آخر سوى الفرق بين زيه وزي أبيه والنزعات النفسية فيهما. أما المعارف والعلوم فهو منها خالي الوفاض بادي الانقاض قد نسي تلكم القشور التي قد حصلها منها.

فمثل هذا سيعود من أوروبا وقد قطع آخر خيط يربطه ببلاده كلها لا سيما اذا عاد وبيده شهادة. وأي خير يرجى من مثله لبلاده؟ وأين هذا الشاب المسكين المغرور بنفسه من شاب تعلم في مدرسة صبغت بصبغة وطنية كمدرسة المعلمين الناصرية مثلا وأتم الدراسة فيها ثم سافر الى أوروبا؟

الخيال في الشعر العربي

٢

التخييل التحضيري

تتداعى المعاني بوسيلة التذكر للاسباب التي كنا بصدد البحث عنها، ثم المخيلة تنتخب منها ماينا سب الغرض، وهذا العمل اعني الانتخاب يسميه علماء النفس تخييلا تحضيريا لانه العمل الذي تتمكن به المخيلة من استحضار العناصر المناسبة للمرام

تقتصر المخيلة عند الانتخاب على مايدعو اليه الغرض حتى انها تأخذ الجسم مقطوعا من بعض الاعضاء التي لامدخل لها في المعنى فتتصور الجواد بغير قوائم كما قال المتنبي

اتوك يجرون الحديد كانما اتوا بجياد مالهن قوائم

والعقرب بغير ذنب كما قال ابو هلال

تبدو الثريا وأمر الليل مجتمع كأنها عقرب مقطوعة الذنب

وربما انتزعت العضو من بين سائر الجسم كما أخذ ابن هانئ اليد فقال